بيديك، أنا لك وإليك، أستغفرك وأتوب إليك، آمنت اللّهم بما أرسلتَ من رسول، وآمنت اللّهم بما أنزلت من كتاب، وصلّى الله على سيدنا محمد النبى، وعلى آله وسلم كثيراً، خاتم كلامى ومفتاحه، وعلى أنبيائه ورسله أجمعين، آمين يا رب العالمين. أللّهم أوردنا حوضه، واسقنا بكأسه مشروباً روياً، سائغاً هنياً، لانظمأ بعده أبداً، واحشرنا فى زمرته غير خزايا ولا نادمين، ولا ناكثين ولا مرتابين، ولا مفتونين ولا مغضوباً علينا ولا ضالين. أللّهم اعصمنى من فتَن الدنيا، ووفقنى لما تحب وترضى من العمل، وأصلح لى شأنى كله، وثبتنى بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة، ولا تضلنى وإن كنت ظالماً. سبحانك سبحانك يا علىّ يا عظيم، يا بار ياً يارحيم، يا عزيز يا جبار، سبحان من سبّحت له السموات بأكنافها، وسبحان من سبّحت له الجبال بأصواتها، وسبحان من سبّحت له البحار بأمواجها، وسبحان من سبّحت له الحيتان بلغاتها، وسبحان من سبّحت له النجوم فى السماء بأبراقها، وسبحان من سبّحت له الشجر بأصولها ونضارتها، وسبحان من سبّحت له السموات السبع والأرضون السبع، ومن فيهن ومن عليهن، سبحانك سبحانك يا حىّ يا حليم، سبحانك لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك، تحيى وتميت وأنت حىّ لا تموت، بيدك الخير وأنت على كل شئ قدير.

فإذا دعا بهذه الأدعية الأربع يوم الجمعة فقد كمّل الله عز وجل عمله، وتمّم عليه فضله، فإذا عمل بخير ما ذكرناه من الأعمال والأذكار، واجتنب سئ ما ذكرناه من الأقوال والأفعال، فهو من أهل الجمعة، وممن له المزيد بها نصيباً موفوراً، وكان عمله الخالص وذكره الصادق عند الله عز وجل مشكوراً، وهذا آخر كتاب الجمعة وهيآتها وآدابها.

الفصل الثانى والعشرون

فيه كتاب الصيام وترتيبه، ووصف الصائمين، وذكر ما يستحب للعبد من الصيام، وطرقات الصائمين فى الصوم، ووصف صوم الخصوص

قال الله عز وجل واستعينوا بالصبر والصلاة جاء في التفسير الصبر يعنى الصوم ، وكان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يسمى رمضان شهر الصبر، لأن الصبر حبس النّفس عن الهوى وإيقافها وحبسها على أمر المولى . وقد روينا عن النبى صلى اللّه عليه وسلم أنه قال الصبر نصف الإيمان، والصوم نصف الصبر. وقال اللّه تعالى واستعينوا بالصبر، قيل معناه على مجاهدة النفس، وقيل على مصابرة العدو. وقال بعض العلماء استعينوا بالصبر على الزهادة فى الدنيا بالصوم، لأن الصائم كالزاهد العابد، فالصوم مفتاح الزهد فى الدنيا وباب العبادة للمولى، لأنه منع النفس عن ملاذها وشهواتها من الطعام والشراب، كما منعها الزاهد العابد

بدخوله فى الزهد وشغله بالعبادة، ولذلك جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهما فى المعنى، فقال إن الله عز وجل يباهى ملائكته بالشاب العابد فيقول: أيها الشاب التارك شهوته من أجلى، المبتذل شبابه لى، أنت عندى كبعض ملائكتى . وقال فى الصائم مثل ذلك، يقول عز وجل يا ملائكتى انظروا إلي عبدى، ترك شهوته ولذته وطعامه وشرابه من أجلى ـ ففى الصوم عون على مجاهدة النفس وقطع حظوظها ومنع عادتها، وفيه إضعاف لها ونقصان لهواها. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله عز وجل كل عمل ابن آدم له إلاّ الصوم فإنه لى، وأنا أجزى به، فأضافه عز وجل إليه تفضيلا له وتخصيصا، كما قال تعالى وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً، وكما قال إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذى حرّمها. فلما كانت المساجد أحب بيوت الدنيا إليه، وكانت مكة أشرف البلاد عنده، أضافها إلى ذكره وله كل شئ . كذلك لما كان الصيام أفضل الأعمال عنده وأحبها إليه، لأن فيه خُلُقا من أخلاق الصمدية، ولأنه من أعمال السرّ بحيث لا يطّلع عليه إلا هو أضافه لنفسه. وقيل ما فى عمل ابن آدم شئ إلاّ ويقع فيه قِصاص ويذهب بِرَدِ المظالم إلاّ الصوم فإنه لا يدخله قصاص. ويقول الله عز وجل يوم القيامه هذا لى فلا يقتص منه أحد شيا. يقال مَا من عمل إلاّ وله جزاء معلوم إلاّ الصوم فإنه لا تعلم نفس ما جزاؤه، ويكون أجره بغير حساب يُفرغ له إفراغا ويجازف مجازفة، وهو أحد الوجوه فى قوله عز وجل فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرّة أعين جزاءً بما كانوا يعملون، قيل كان عملهم الصيام. وكذلك فى تأويل قوله عز وجل السائحون، قيل هم الصائمون كأنهم ساحوا إلى ربهم عز وجل بجوعهم وعطشهم، وتركوا قرّة أعين أبناء الدنيا من أكلهم وشربهم فآواهم مولاهم فيما أخفى لهم من قرّة أعين جزاءً لعملهم. وقال تعالى إنما يوفّى الصابرون أجرهم بغير حساب، قيل الصائمون.

والصبر اسم من أسماء الصوم، فلما أخفى ذكره بالصوم فى نفسه أخفى الله عز وجل جزاءه إياه عن غير نفسه. وفى الحديث مَن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى، فالصوم ذكر الله عز وجل وهو سر. ولست أستحب للعبد أن يزيد على إفطار أربعة أيام نَسَقاً فإن ذلك يقسّى القلب ويغيّر الحال ويولّد العادات ويفتّق الشهوات، ولأنه لم يؤمر ولم يندب إلى أن يوالى بين إفطار أكثر من أربعة أيام متوالية، وهى النحر وأيام التشريق.

ويستحب له أن يصوم يوماً ويفطر يوما، أو يصوم يومين ويفطر يومين، وذلك صوم نصف الدهر، وإن أحب فليصمْ يومين ويفطر يوما وذلك صوم ثلثى الدهر، فإن أحب فليصم يوما

ويفطر يومين وهذا صيام ثلث الدهر. وهذه طريق الصائمين وفيها روايات حذفنا ذكر فضائلها للاختصار. فإن صام ثلاثا من أول الشهر وثلاثا من وسطه وثلاثا من آخره فحسن، فإن صام الأثانين والأخمسة والجُمع فذلك خير كبير، وأقل من ذلك أن يصوم الأيام البيض وأول يوم من الشهر وآخر يوم منه، وأفضل الصيام ما كان فى الأشهر الحرم، وأفضل ذلك ما وقع فى العشرين منها وهو المحرم وذو الحجة ، وبعد ذلك ما كان فى شعبان فإن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم كان يُكثر الصيام فيه حتى يصله بشهر رمضان، ولا يدع أن يصوم من كل شهر ثلاثة أيام، وليواظب على صوم الاثنين والخميس.

وفى الخبر أفضل الصيام بعد شهر رمضان وشهر اللّه المحرم. وصوم النصف الأول من شهر شعبان مستحب ، وقد كانوا يفطرون النصف الأخير منه. وقد روينا خبر إذا كان النصف من شعبان فلا صوم حتى يدخل رمضان. وليفطر قبل رمضان أياما، فإن وَصَلَ شعبان برمضان فجائز، ولا يجوز أن يستقبل رمضان بيومين أو ثلاثة إلاّ أنْ يوافق ذلك يوم اثنين أو خميس قد كان يصومه.

وقد كان بعض الصحابة يكره أن يصام رجب كله لئلا يضاهى به شهر رمضان، وكانوا يستحبون أن يفطروا منه أياما .

وقد كره قوم صيام الدهر كله، ووردت أخبار في كراهته، وقد تأوّل ذلك بأنهم كانوا يصومون السنة كلها مع يوم العيد وأيام التشريق فوردت الكراهة لذلك. وإن كان يريد صلاح قلبه وانكسار نفسه واستقامة حاله فى صوم الدهر فليصمه، فهو حينئذ كالواجب عليه إذا كان تقواه وصلاحه فيه، فقد روينا عن سعيد عن قتادة عن أبى تميمة الهجيمى عن أبى موسى الأشعرى قال، قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم من صام الدهر ضيقت عليه جهنم وعقد تسعين، معناه لم يكن له فيها موضع. وقد دلّت الأصول على فضل صوم الدهر، وقد صامه طبقات من السلف الصالح من الصحابة والتابعين بإحسان، إلاّ أن يكون الرجل يرغب عن السُنّة ولا يرى الرُخصة فى الإفطار فيُكْرَه له صوم الدهر للمعاندة، لأن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أمر بالسعة فى الدين، وأخبر اللّه عز وجل بأنه يحب أن يؤخذ برخصه كما يحب أن يؤخذ بعزائمه، وفى لفظ آخر يحب أن يؤخذ برخصه كما يكره أن تؤتى معصيته. وقد دلت الأخبار على فضل صوم نصف الدهر بأن يصوم يوما ويفطر يوما ، وذلك ليكون العبد بين حالين، حال صبر وحال شكر. ومن ذلك ماروى عن النبى صلى اللّه عليه وسلم عُرضت علىّ مفاتيح خزائن الدنيا وكنوز الأرض

فرددتها فقلت أجوع يوما وأشبع يوما، أحمدك إذا شبعت وأتضرع إليك إذا جعت. ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم أفضل الصيام صيام أخى داود عليه السلام، كان يصوم يوما ويفطر يوما. ومن ذلك منازلته عليه السلام لعبد الله بن عمرو فى الصوم وهو يقول إنى أريد أفضل من ذلك، حتى قال له النبى صلى الله عليه وسلم صُمْ يوماً وأفطر يوما، قال أريد أفضل من ذلك، قال لا أفضلَ من ذلك.

وروى في الخبر صوم يوم من شهر حرام أفضل من صوم ثلاثين يوماً من غيره، وصوم يوم من رمضان أفضل من صوم ثلاثين يوما من شهر حرام. وفى حديثٍ من صام ثلاثة أيام من شهرٍ حرام، الخميس والجمعة والسبت، كتب الله تعالى له عبادة سبعمائة عام. وقد روينا أن النبى صلى اللهّ عليه وسلم ما صام شهراً كاملا قط إلاّ رمضان، بل كان يفطر منه ، وقد وصل مرة شعبان برمضان، وفصل صوم رمضان مراراً من شعبان.

وما ذكرنا من أنواع الصوم فهو صيام جماعة من السلف الصالح، وفى كل منه ورد فيه فضائل يكثر ذكرها، وكذلك فى جميع مانذكره من أعمال القلوب والجوارح في الأيام والليالى ، وكذلك فيما نذكره من أخلاق الإيمان وأوصاف الموقنين. وقد جاءت فى أكثر ذلك فضائل ومثوبات إلاّ أنّا لم نقصد تعديد ذلك، وليس مذهبنا الاشتغال بذكر فضائل الأعمال ، إنما طريقنا تهذيب قلوب العمّال، فبطهارة القلوب وحقيقة الإيمان تزكو الأعمال وتقرّب العاملون من ذى الجلال ، ولا حول ولا قوة إلاّ بالله العلى العظيم.

ذكر صوم الخصوص من الموقنين

إعلم وفّقك الله تعالى أن الصوم عند الصائمين هو صوم القالب، فأما صوم الخصوص من الموقنين فإن الصوم عندهم هو صوم القلب عن الهمم الدنّية والأفكار الدنيوية، ثم صوم السمع والبصر واللسان عن تعدّى الحدود، وصوم اليد والرجل عن البطش والسعى فى أسباب النهى، فمن صام بهذا الوصف فقد أدرك وقته فى جُملة يومه، وصار له فى كل ساعة من نهاره وقت، وقد عمر يومه كله بالذكر. ولمثل هذا قيل نوم الصائم عبادة ونَفَسُه تسبيح. وقد قرن الله عز وجل الاستماع إلي الباطل والقول بالإثم إلى أكل الحرام، ولولا أن فى المسموعات والمقولات حراماً على المستمع والإصغاء إليه، وحراما على القائل النطق به، ما قرنهما إلى أكل الحرام وهو من الكبائر، فقال تعالى سمّاعون للكذب أكالّون للسُحت، وقال سبحانه وتعالى لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السُحت – فالعبد الحافظ لحدود الله عز وجل إنْ أفطر بالأكل

والجماع فهو صائم عند الله فى الفضل للاتباع ، ومن صام من الأكل والجماع وتعدّى الحدود وأضاع فهو مفطر عند الله عز وجل صائم عند نفسه ، لأن ما أضاع أحب إلى الله عز وجل وأكثر مما حفظ . ومثل من صام من الأكل وأفطر بمخالفة الأمر بسائر الجوارح مثل من مسح كل عضو من أعضائه فى وضوئه ثلاثا ثلاثا ثم صلّى ، فقد وافق الفضل فى العدد إلاّ أنه تارك للفرض من الغُسل ، فصلاته مردودة عليه لجهله وهو مغتر بفعله. ومثل من أفطر بالأكل وصام بجراحه عن النهى مثل من غسل كل عضو من أعضائه فى وضوئه مرة مرة فهو تارك للفضل فى العدد إلاّ أنه مُكمّل للفرض مُحسن فى العمل ، فصلاته متقبلة لإحكامه للأصل ولعمله بالعلم . ومثل من صام من الأكل والجماع وحفظ جوارحه عن الآثام كمثل من غسل كل عضو ثلاثا ثلاثا فقد تمم الفرض وأحسن بتكملة الفضل، فهذا كما قال تعالى تماما على الذى أحسن ، وكما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الوضوء كذلك - هذا وضوئى، ووضوء الأنبياء من قبلى، ووضوء أبى ابراهيم عليه السلام. وقد قال الله تعالى ملة أبيكم إبراهيم ، أى عليكم بها فائتمُوا واقتدوا به فيها . وقد روينا عن النبى صلى الله عليه وسلم الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر . وجاء فى الخبر أن امرأتين صامتا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فأجهدهما الجوع والعطش فى آخر النهار حتى كادتا أن تتلفا ، فبعثتا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يستأذناه فى الإفطار ، فأرسل إليهما قدحاً وقال قل لهما قيأ فيه ما أكلتما ، قال فقاءت إحداهما نصفه دما غبيطا ولحما عريضا ، وقاءت الأخرى مثل ذلك حتى ملأتاه ، فعجب الناس من ذلك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هاتان صامتا عما أحلّ الله عز وجل لهما ، وأفطرتا على ما حرّم الله عز وجل عليهما . قعدت إحداهما إلى الأخرى فجعلا يغتابان الناس ، فهذا ما أكلا من لحومهم .

وكان أبو الدرداء يقول يا حبذا نوم الأكياس وفطرهم ، يعيبون صوم الحمقى وسهرهم ، ولَذرةٌ من ذى يقين وتقوًى أفضل وأرجح من أمثال الجبال من عبادة المغترّين . وكل محظور عليك أن تتفوه به فمحظور عليك أن تستمع إليه . وكل حرام عليك أن تفعله فمكروه أن تنظر إليه أو يخطر ببالك . وقد سوّى الله عز وجل بين المستمِع والقائل فى قوله تعالى إنكم إذاً مثلهم.

ومثل الصائم مثل التوبة لأن الصبر من أوصافها، وإنما كانت التوبة مكفّرة لما سلف من السيآت لأجل أنه صبر عما سلف من سيء العادات، ثم اعتقد ترك العوْد إلى مثل ما سلف بصيانة جوارحه التى كانت طرائق المكروهات، كذلك كان الصيام جُنّة من النار، وفضيلة من

درجات الأبرار إذا صبر عليه الصائم، فحفظ جوارحه فيه من المأثم، فإذا أمرحها فى الآثام كان كالتائب المتردد الناقض للميثاق، لم تكن تويته نصوحا، ولا كان صوم هذا صالحا وصحيحا. ألاَ ترى إلي قول رسول الله صلى الله عليه وسلم الصوم جنة من النار ما لم يخرقها بكذب أو غيبة ـ وأمره في قوله عليه السلام ـ إذا كان صوم أحدكم فلا يرفث ولا يجهل، وإنْ امرؤ شاتمه فليقل إنى صائم. وفى لفظ آخر لا يجعل يوم صومه ويوم فطره سواء، أى يتحفظ فى صومه لحرمته. وفى خبر آخر الصوم أمانة فليحفظ أحدكم أمانته، فَحفظ الأمانة من صيانة الجوارح، لقول النبى صلى الله عليه وسلم لما تلا هذه الآية إن الله يأمركم أنْ تؤدوا الأمانات إلى أهلها – وضع يده على سمعه وبصره فقال السمع أمانة، والبصر أمانة، فذلك مجاز قوله فليقل إنى صائم، أى يذكر الأمانة التى حمل فيؤديها إلى أهلها. ومن حفظ الأمانة أن يكتمها، فإن أفشاها من غير حاجة فهى خيانة، لأن مودعها قد لا يحب أن يظهرها. وحقيقة حفظ السر نسيانه، وضياع السر ان يكْثُر خُزّانه، فحقيقة الصائم أن يكون ناسياً لصومه لا ينتظر الوقت شغلا عنه بالمؤقت.

الفصل الثالث والعشرون
فيه كتاب محاسبة النفس ومراعاة الوقت

قال الله عز وجل ونضع الموازين القَسطَ ليوم القيامة إلى قوله آتينا بها وكفى بنا حاسبين، وقرئت آتينا بها ممدودة أى جازينا بها ، فالتخويف بهذا الحرف أشد وأبلغ . وقال تعالى يومئذ يصدر الناس أشتاتا ليُرَوْا أعمالهم الآية . وأوصى أبو بكر عمر رضى الله عنهما عند موته فقال إنّ الحق ثقيل وهو مع ثقله مرىء ، وإنّ الباطل خفيف وهو مع خفته وبىء ، وإنّ لله عز وجل حقاً بالنهار لا يقبله بالليل ، وحقاً بالليل لا يقبله بالنهار ، وإنك لو عدلت على الناس كلهم وجُرْتَ على واحد منهم لمال جَوْرك بِعَدْلِك ، فإنْ حفظت وصيتى لم يكن شىء أحب إليك من الموت وهو مدركك ، وإنْ ضيعت وصيتى لم يكن شىء أبغض إليك من الموت ولن تُعْجِزه . وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحَاسَبوا ، وزنوها قبل أنْ توزنوا ، وتزينوا للعَرْض الأكبر على الله تعالى يومئذ تُعرضون لا تخفى منكم خافية ، وإنما خفّ الحساب فى الآخرة على قوم حاسبوا أنفسهم فى الدنيا ، وثقلت موازين قوم فى الآخرة وزنوا أنفسهم فى الدنيا . وحقّ لميزان لا يوضع فيه إلاّ الحق أن يكون ثقيلا ، فمحاسبة النفس تكون بالورع ، والموازنة تكون بمشاهدة اليقين ، والتزين للعرض الأكبر يكون بمخافة المَلِك الأكبر ، وهو حقيقة